خاتمة

تمثل هذه القراءة الموجزة للرواية المضادة في أدبنا الحديث عيّنة من إنتاج روائي هائل، تسهم فيه مواهب متفاوتة، وتدعمه جهات رسمية وطائفية قوية وقادرة على العمل والمساندة والترويج..

كثير من هذه الأعمال لا يملك الأدوات الأولية ولا الحرفة الفنية، وبعضها اندمج في دعاوى سيريالية السرد الروائي، وتفتيته، وتناقضاته، ... ولكنها في معظمها اتفقت على شيء واحد أساسي، وهو رفض الإسلام وتشويهه وشيطنته.

الغاية الأدبية

لم تكن غاية الرواية المضادة في البيئة الإسلامية أدبية أو فنية بحال.

أولًا- هناك حفاوة غير مسبوقة بالرواية المضادة التي تشوّه الدين الحنيف، وتصوره على غير حقيقته، أو تضعه في مسار غير مساره الصحيح.

ثانيًا- هناك من وجد في العزف على الوتر الطائفي والمذهبي فرصة ذهبية للتقرب إلى الجهات التي تملك المنح والمنع، والشهرة والتعتيم، بالإساءة إلى الإسلام، وتحميله كذبًا المسؤولية المدعاة لمظلومية الطائفة أو الأقلية.

ثالثًا- تجنح بعض الروايات المضادة إلى تزوير التاريخ القريب، والتغاضي عن جرائم أعداء الإسلام والمسلمين، في سبيل الترويج لقضايا دعائية تثيرها النظم المستبدة خدمة للقوى العالمية الطامعة في البلاد العربية وثرواتهم.

رابعًا- تتعدد اللافتات والعناوين التي يتم تحت رايتها التشويش على الإسلام أو تشويهه أو الدعوة إلى إقصائه وإحلال نظم أو ثقافات بديلة، ولكن يبقى الهدف واحدًا، وهو: لا مكان للإسلام في مستقبل النظم الاستبدادية!

خامسًا- كثير من الأعمال المضادة تفتقد الأدوات الأساسية للكتابة من نحو وصرف وتركيب سليم، فضلًا عن الرقي التعبيري والبيان الأدبي والإبداع البلاغي، ومع ذلك تجد ترحيبًا فوق العادة، وترويجًا إعلاميًا يفوق كثيرًا قيمتها الأدبية.

الطابع الإعلامي

لاريب أن الحياة الأدبية على مستوى العالم العربي فاسدة في مجملها، وتتحكم فيها طغمة من أشباه الأدباء وكتّاب السلطة، والباحثين عن المنافع الرخيصة، كما يهيمن عليها الطابع الإعلامي الذي يهدف أصحابه إلى الشهرة وعلو الصيت دون أن تكون لديهم الموهبة الحقيقية، أو يبذلوا الجهد الخلّاق المفترض ، فالأديب الحق الذي يملك الأدوات والخبرة والثقافة، لذا فإن اختلاط الأمور هو السمة المميزة للمرحلة التي تعيشها الأمة منذ عقود.

من الصعب أن تقنع شبه أديب أو كاتب سلطة أن يعالج المسألة الطائفية وفقًا لمنظور الإسلام، ودون أن يفتري وقائع أو أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أساس لها على الأرض.

لقد أصبحت عناصر تحقيق الشهرة مرتبطة بالتجديف في حق الذات الإلهية وإهانة الأنبياء والصحابة والرموز الدينية عمومًا، وتملّق الطوائف والعرقيات وخاصة تلك التي تعمل من أجل التمرد على

الوطن الأم، والتقرب إلى السلطات المستبدة الفاسدة بتحويل الأعمال الفنية إلى منشورات دعائية لا فرق بينها وبين ما تنشره الصحف من مقالات مادحة أو قادحة على أساس تصفية الحسابات مع الخصوم والمناوئين، والتعبير عن الجنس بطريقة مكشوفة وأسلوب فج، بعيدًا عن مقتضيات الفن وما يحمله من إيحاءات ورموز تنهض بالصياغة وتثري الأسلوب، وهذا العنصر بات سهلًا ميسورًا لجذب القرّاء من شباب المراهقين من ناحية، ولفت أنظار المتصدرين للمشهد الثقافي من ناحية أخرى، وللأسف فإن بعضهم ينصح الأدباء الموهوبين أو غير المشهورين بالعزف على وتر هذا العنصر، والإلحاح عليه في صورته الطبيعية أو في جانبه الشاذ.

نصيحة غريبة

في لقاء تليفزيوني أجراه الكاتب عمر طاهر مع الأديب الراحل الدكتور أحمد خالد توفيق مساء الجمعة ٣٠ مارس ٢٠١٨م ، ولعله كان آخر ظهور له حيث توفي بعد ثلاثة أيام فقط، قال: إنه يكتب ما تمليه عليه نفسه وليس ما يطلبه المستمعون، وإن مجد الكاتب الحقيقي أن يعثر علي نفسه ويضعها علي الورق .

المهم أنه ذكر في هذا اللقاء أن الروائي علاء الأسواني وجّه له نصيحة غريبة عبارة عن وصفة للوصول إلي العالمية، وذلك بأن يكتب قصة عن علاقة سحاقية بين فتاتين منتقبتين، واحدة منهما اضطرها المجتمع إلي أن تتزوج رجلًا فظًا يكتشف أنها غير مختونة، فيجري لها عملية ختان تموت فيها، وأكّد له الأسواني أن هذه القصة تبيع ستين مليون نسخة وتحتل غلاف مجلة النيوزويك! بيد أن الدكتور أحمد خالد ردّ قائلًا: لو كتبت

هذه القصة أكون قد خنت موقفي الرافض لقاعدة ما يطلبه المستمعون، وماذا يفيد أن أبيع كثيرًا وأنجح في الغرب؟

للأسف، فإن أدباء غير أحمد خالد توفيق سمعوا مثل هذا النصائح، وقد سمعتها بنفسي، ولكن من سمعوا لم يكونوا أصحاب موقف راسخ مثل موقف أحمد توفيق؛ جعله ينجح في اجتذاب شباب غفير إلى مؤلفاته، ويحبّب إليهم القراءة، ويسمّونه «العراب» ، وكل ذلك دون أن ينصاع لنصائح غريبة تحقّق له الشهرة والمال والظهور على غلاف النيوز ويك!

أصحاب الضمير

إزاء ذلك، فإني أرى:

أولًا- أن ينهض النقاد والدارسون الأحرار من أصحاب الضمير بمتابعة الأعمال الفنية التي تصدر، ورفض ما يعدّ مضادًا للتقاليد الأدبية ويفتقد الأدوات الفنية، ويفتقر إلى التصور الإنساني الصحيح، وتقديم ما يستحق وتتوفر فيه شروط الفن والرؤية الإنسانية الحانية.

أعلم أن مهنة النقد والدرس مكلفة معنويًا وغير مثمرة ماديًا، ولكن الواجب الذي يفرضه الضمير؛ يحتّم على الناقد الدارس أن يواجه التيار الفاسد، وأن يكون مشروع شهيد في الحقل الأدبي من أجل «الكلمة الطيبة» .

ثانيًا- يجب أن يكون هناك إقناع فني وحقيقي عند تناول الواقع أو التاريخ، ولا يجوز أن يتجه بعض الكتّاب من أجل غاية دعائية إلى تزييف الواقع أو تزوير التاريخ.

وهنا تظهر أهمية وجود الناقد أو الدارس الذي يقرأ ويفحص ويوجه، هناك الآن سيولة في الصحف والدوريات التي تعالج الأدب وفنونه، امتدت للأسف إلى الجامعة ، حيث نرى رسائل ودراسات،

متأثرة بما يبثه الإعلام وما يروّج له من أعمال أدبية ولو كانت ضعيفة، أو كان أصحابها محرومين من الموهبة أو الخبرة أو الثقافة، ولذا نجد تناولًا ضعيفًا لأعمال ضعيفة لا تستحق مجرد الإشارة، ولكنها سطوة الإعلام تفرض نفسها بقوة، على وسط لم يعد يهتم بالقراءة، بقدر ما ينشغل بالدعاية ومنطقها الدعائي المسطح.

ثالثًا- في ظل هيمنة مثقفي السلطة وأدبائها على المشهد الثقافي وتوجيهه نحو الأدب الدعائي القائم على التزييف والتزوير، ورفض الثقافة القومية لحساب الثقافة الغربية والوثنية، فقد صار ضروريًا أن تنهض الجهات التي يعنيها أمر النهضة الأدبية والثقافة القومية، بمبادرات تساعد أصحاب المواهب الحقيقية والرؤى السوية على نشر أعمالهم، وتقديمها للباحثين والدارسين لتناولها، وتقويمها، وتوجيهها.

صحيح أن فكرة الأدب والثقافة بصفة عامة بعيدة عن أذهان الأغنياء والمؤسسات الاقتصادية والشركات الكبرى في زماننا، ولكن دعوة هذه الجهات إلى بذل النزر اليسير من أرباحها في مجال الاهتمام بالأدب والثقافة القومية المضطهدة، واستجابتها سيكون أمرًا طيبًا محسوبًا لها على مستوى الوطنية والقومية، فضلًا عن الدين والإنسانية، ولست في حاجة إلى التذكير بالدور الذي لعبه طلعت حرب، وأميرات الأسرة المالكة المصرية وبعض الأغنياء وأصحاب الشركات في النصف الأول من القرن العشرين.

هذا وبالله التوفيق.